سوسيولوجيا التسامح والتطرف في الفكر الاجتماعي العراقي الحديث

دراسة تحليلية نقدية لأفكار علي الوردي وحاتم الكعبي

أ.م.د. نصير محسن عبد الحسين القتلاوي

كلية الآداب، جامعة القادسية، العراق

nasseer.abdulhusein@qu.edu.iq

المستخلـــص

تعد مواضيع التسامح والتطرف من المواضيع المهمة التي شغلت بال المفكرين العراقيين، لما لها من ارتباط عميق بالبنية الثقافية والاجتماعية والسياسية للمجتمع، وقدّم المفكرين العراقيين قراءات متقدمة في تشخيص جذور التطرف والتوتر القيمي داخل الشخصية العراقية، كما سعى كلٌ منهم بأسلوبه الخاص إلى تأصيل مفهوم التسامح ضمن السياق المحلي.

لقد كشفت الدراسة أن الدكتور علي الوردي تعامل مع قضية التطرف بوصفها نتاجًا لصراع تاريخي بين قيم البداوة والحضارة، وأرجع ذلك إلى ما سماه بـ(ازدواج الشخصية العراقية)، داعيًا إلى تحطيم القيم التقليدية وإعادة بناء وعي اجتماعي قائم على النقد والتحليل الواقعي. أما الدكتور حاتم الكعبي، فقد اقترب من المسألة من زاوية بنيوية، حيث ربط بين التحول الاجتماعي السريع، وتفاوت القيم، وفشل النظم التربوية، في توليد مظاهر التطرف والعنف الرمزي، مشددًا على ضرورة بناء مؤسسات مدنية عادلة.

Abstract

This study explores the sociology of tolerance and extremism within the framework of modern Iraqi social thought, through a critical and analytical examination of the ideas of two prominent intellectuals: Dr. Ali Al-Wardi and Dr. Hatim Al-Kaabi. The research aims to

understand how these thinkers conceptualized tolerance and extremism, and how their insights reflect broader structural tensions within Iraqi society.

Using a comparative analytical method, the study highlights Al-Wardi's emphasis on the cultural duality of the Iraqi personality, shaped by the clash between nomadic and urban values, and his call for a cultural revolution based on realism and critical thinking. In contrast, Al-Kaabi approached extremism through structural and developmental lenses, focusing on the impacts of social inequality, rapid transformation, and weak institutions on the emergence of extremist behavior.

المقدمة

يعد موضوع التسامح والتطرف واحد من أبرز التحديات التي تواجهها المجتمعات المعاصرة، لا سيما تلك التي عانت من صراعات سياسية واجتماعية وثقافية، كما هو الحال في المجتمع العراقي. فقد أفرزت التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في هذا البلد، عبر مراحل متعددة من تاريخه الحديث، أنماطاً متباينة من الخطابات الفكرية التي عبّرت عن مواقف متناقضة إزاء مفاهيم الاختلاف والآخر والقيم المدنية، ما جعل من دراسة موضوعات التسامح والتطرف في السياق العراقي ضرورة علمية لفهم بنية المجتمع ونزعاته المتناقضة.

وفي البحث الحالي نحاول تسليّط الضوء على التمثلات السوسيولوجية للتسامح والتطرف في الفكر الاجتماعي العراقي، من خلال العودة إلى التراث الفكري لاثنين من أبرز علماء الاجتماع العراقيين في القرن العشرين، وهما الدكتور علي الوردي والدكتور حاتم الكعبي. إذ لم تقتصر اسهاماتهم العلمية على وصف الواقع العراقي فحسب، بل سعياً منهم – كلٌ بأسلوبه ومنهجه – إلى تشخيص علله البنيوية وتحليل جذور النزعات الفكرية والسلوكية المتضادة في الشخصية العراقية والمجتمع العراقي.

المبحث الأول: الإطار العام للبحث

أولاً: أهمية البحث

تستمد هذه الدراسة أهميتها من أهمية الموضوع الذي تتناوله، إذ إن التسامح والتطرف يمثلان ثنائية محورية في فهم طبيعة العلاقات الاجتماعية والتحولات الثقافية في المجتمع العراقي، خصوصاً

في ظل الأزمات المتكررة التي شهدها خلال العقود الأخيرة. ويُعد الرجوع إلى الفكر السوسيولوجي العراقي، متمثلاً في أطروحات علي الوردي وحاتم الكعبي، محاولة لاستكشاف كيفية تعامل الفكر الاجتماعي المحلي مع هذه الظواهر المتناقضة، ومدى قدرته على تقديم تفسيرات تنبع من خصوصية الواقع العراقي لا من إسقاطات نماذج نظرية غربية.

وتبرز أهمية البحث كذلك في كونه يسعى إلى نقد وتحليل هذا التراث الفكري، من خلال مقارنة منهجيات الوردي والكعبي في معالجة قضايا التسامح والتطرف، ما يسهم في الكشف عن البنى العميقة للخطاب السوسيولوجي العراقي ومحدوديته أو إمكانياته التفسيرية. كما يهدف البحث إلى المساهمة في سدّ فجوة معرفية في الدراسات الاجتماعية العراقية والعربية، عبر تقديم قراءة نقدية مقارنة لمفكرَين لم يُدرسا معاً في هذا السياق، رغم ما يجمع بينهما من اهتمام مشترك بتحليل الشخصية العراقية وبنيتها الثقافية والاجتماعية. ومن هنا، فإن هذا البحث لا يقتصر على إعادة قراءة الفكر السوسيولوجي فحسب، بل يسعى أيضاً إلى ربطه بالتحولات الاجتماعية الراهنة، مما يمنحه بعداً معرفياً وتطبيقياً في آن واحد.

ثانياً:إشكالية البحث

لقد انشغل الفكر السوسيولوجي العراقي، منذ نشأته الأولى في منتصف القرن العشرين، بمحاولة تفسير الانقسامات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي شكّلت بنية المجتمع العراقي. وكان الدكتور علي الوردي والدكتور حاتم الكعبي يمثلون اتجاهين سوسيولوجيين مختلفين نسبياً، سعيا منهما إلى تحليل الواقع الاجتماعي العراقي من منطلقات متعددة، وتقديم تصورات حول أسباب النزاع، وأوجه الازدواجية، وأسس التسامح أو انعدامه. ورغم أهمية إسهاماتهما، إلا إن دراسة تمثلاتهما لمفاهيم التسامح والتطرف لم تحظَ بما يكفي من التحليل والنقد، ما يفسح المجال للتساؤل عن مدى انسجام أطروحاتهما مع واقع المجتمع، وحدود تفسيراتهم لهاتين الظاهرتين.

ومن هنا، تبرز إشكالية هذا البحث في محاولة تفكيك وتحليل ونقد الخطاب السوسيولوجي حول التسامح والتطرف لدى علي الوردي وحاتم الكعبي، والسعي إلى الإجابة عن مدى قدرة هذا الفكر على فهم الظواهر المرتبطة بالعنف والقبول بالآخر في السياق العراقي.

ثالثاً: تساؤلات البحث

وينطلق من هذه الدراسة تساؤلات مركزية مفادها:

كيف تمثل مفهومي (التسامح والتطرف) في إسهامات الدكتور علي الوردي والدكتور حاتم الكعبي ؟ وإلى أي مدى عبّرت أطروحاتهما عن واقع المجتمع العراقي وتحولاته؟ وكيف تناول كلٌّ من علي الوردي وحاتم الكعبي مفهومي التسامح والتطرف في الفكر الاجتماعي العراقي، وما مدى نجاعة أطروحاتهما في تفسير الواقع العراقي؟

ومن هذه التساؤلات نستنتج تساؤلات فرعية وكالآتي:

١. ما الجذور الاجتماعية والثقافية التي اعتمد عليها كل من الوردي والكعبي في تحليل ظاهرتَي التسامح والتطرف؟

٢. ما أوجه الاتفاق والاختلاف بين الوردي والكعبي في رؤيتهما للتطرف والتسامح؟

٣. هل لا تزال أطروحات الوردي والكعبي صالحة لفهم الظواهر الاجتماعية الراهنة في العراق؟

رابعاً:اهداف البحث

إن الهدف الأساس من البحث هو نقد وتحليل كيف تمثل مفهومي التسامح والتطرف في إنتاجات الوردي والكعبي، للكشف عن نقاط التلاقي والإختلاف بينهما، ومدى قدرة أطروحاتهما على تفسير الظواهر الاجتماعية المرتبطة بالعنف، والتعصب، والانقسام المجتمعي في العراق. فضلاً عن مجموعة من الأهداف الفرعية وكالآتي:

١. تحليل الخطاب السوسيولوجي لكل من علي الوردي وحاتم الكعبي في ما يتعلق بظاهرتي التسامح والتطرف في المجتمع العراقي.

٢. الكشف عن الأسس النظرية والمنهجية التي اعتمدها كل من الوردي والكعبي في تفسير سلوكيات التسامح والتطرف.

٣. مقارنة الرؤى التحليلية التي قدّمها الوردي والكعبي، وتحديد أوجه التشابه والاختلاف في تفسير كل منهما للبنية الاجتماعية العراقية.

٤. نقد التراث السوسيولوجي العراقي من خلال دراسة عيّنتين تمثلان اتجاهين مهمين في الفكر الاجتماعي العراقي الحديث.

خامساً:منهجية البحث

اعتمد هذا البحث على المنهج النوعي (الكيفي) في تحليل الخطاب السوسيولوجي لكل من علي الوردي وحاتم الكعبي، باعتباره الأنسب لدراسة النصوص الفكرية والنظرية التي تتناول قضايا معقدة مثل التسامح والتطرف، بما تحمله من أبعاد ثقافية واجتماعية وسياسية. ويرتكز البحث على التحليل النقدي للنصوص بوصفه أداة رئيسية في تفكيك المفاهيم وتتبّع السياقات النظرية التي أُنتجت فيها أفكار الوردي والكعبي، مع محاولة ربطها بالواقع الاجتماعي العراقي الذي شكّل بيئة هذه الأطروحات.

وسيتم التعامل مع مؤلفات الوردي والكعبي بوصفها مادة بحثية مركزية، من خلال تحليل محتواها تحليلاً موضوعياً ومقارنًا، للكشف عن أساليب التفكير والمنهجيات التي اعتمداها في تفسير ظاهرتي التسامح والتطرف. كما يستفيد البحث من بعض مفاهيم علم اجتماع المعرفة وتحليل الخطاب السوسيولوجي، في رصد العلاقة بين الإنتاج الفكري والسياق الاجتماعي الذي نشأ فيه.

ومن أجل تحقيق التوازن في الدراسة، سيتخذ البحث منحى مقارنًا، يرصد أوجه الاتفاق والاختلاف في الرؤية التحليلية لكل من الوردي والكعبي، مما يساعد على تقديم قراءة نقدية شاملة تسهم في تطوير فهم أعمق للتراث السوسيولوجي العراقي وتقييم صلاحيته لفهم تحولات المجتمع العراقي المعاصر.

سادساً:تحديد المفاهيم

١ – التسامح

السَّماح والسَّماحة: الجود ، سمح سماحة وسموحة سماحاً، ورجل سمح وأمرأة سمحة من رجال ونساء سماح وسمحاء فيهما، ورجل سميح ومسمح ومسماح، سمح ، ورجال مساميح ونساء مساميح / تسامح في يتسامح، فهو متسامح ، والمفعول متسامح فيه[١].

فالتسامح هو الصفح والعفو والإحسان، والذي يقابله التعنت والتعصب والتطرف والغلو، وهو نظرة إنسانية يمتلكها ديننا الحنيف، فبينما يقبل المسلمون وجود أديان مغايرة لدينهم، ويرفضون إكراه أحد على ترك ملته، ويرضون أن يتآلف المجتمع من المسلمين وغير المسلمين، ويشرعون نظماً عادلة لتطبق عليهم وعلى من في ذمتهم من مسيحيين ويهود. ومن خصائص حضارتنا الإسلامية إنها لاتحكم بالإعدام على الثقافات الأخرى، والحوار هو البديل، والتعددية في الثقافة ثراء للفكر وإقرار الإسلام بتعدد العقائد هو إقرار بمشيئة الله[٢] **(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين)**[٣]

٢ – التطرف

التطرف من المفاهيم التي يصعب تحديدها بدقة، لما يشمله التعريف من جدل واسع حول مفهوم حد الاعتدال، وذلك لكون الاعتدال مفهوم نسبي يختلف باختلاف المجتمعات، حيث تعتبر بعض القضايا تطرفاً في مجتمع ما ولا تعتبر تطرفاً في مجتمع آخر، ويرتبط الإعتدال والتطرف بالعديد من المتغيرات السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية والبيئية التي يمر بها المجتمع بالاضافة إلى تفاوت حد الاعتدال والتطرف من زمان إلى آخر.

والتطرف كلمة مشتقة من الطرف بمعنى الناحية من الشيء، وتطرف أي أتى الطرف أو حد الاعتدال، والتطرف اصطلاحاً يشير إلى الإبتعاد عما هو منطقي أو معقول أو مقبول كالتطرف في الرأي، وتشير كلمة (Extreme) إلى أي ناحيتين تكونان متناقضتين ومتباعدتين في المسافة عن بعضهما مثل انفعال الألم أو السرور، ومن الناحية القانونية يعني الخروج أو الإنخراط عن الخط السوي للمجتمع أو النصوص القانونية التي تحكم سلوك الأفراد في المجتمع، والتطرف قد يكون اتجاهاً فكرياً داخل الأسرة يؤدي إلى سلوك يكتسبه الأبناء، وتستخدم فيه كل الوسائل العنيفة مما يترتب عنه نتائج سلبية يرفضها أي مجتمع، وهو بهذا المعنى يعني الإنحياز إلى أحد طرفي الأسرة فيشمل الغلو ولكن الغرض منه الزيادة والمجاوزة وليس فقط بمجرد البعد عن الوسط إلى الأطراف، أو بمعنى آخر كل غلو هو تطرف، وليس كل تطرف يعد غلواً[٤].

ومفهوم التطرف والمتطرف مفهوم جدلي مثله مثل مفهوم الإرهاب، ويعني منه التطرف أشياء مختلفة لأشخاص مختلفين، ذلك لأن التطرف قناعات عقلية لجماعات أو أفراد بإمتلاك الصواب دون غيرهم

باستخدام اساليب متنوعة كالتهديد والعنف لغرض الإذعان وقبول الشروط والإملاءات لاتخاذ المواقف التي تتماشى مع عقيدتهم . فهو عبارة عن حصيلة جملة من المواقف السلوكية المنحرفة عن مسار السلوك الإنساني المعتدل والسوي والناتجة عن تشوهات فكرية واعتلالات وجدانية، وهو فكرة أو رأي والإصرار عليه حتى لو كان خاطئاً نتيجة عدم الفهم أو الوعي أو الإدراك الكامل والحقيقي للمضمون، وثمة علاقة بين التطرف والتشديد والتعصب، وهي علاقة اقتضاء وجوار، بحيث يتحول التطرف إلى تشديد وعنف، وبينهما تبادل وترابط في المعنى، والتطرف من حيث هو مصطلح حديثقد يكون في الدين والفكر والسياسة والأخلاق والسلوك، وقد ورد النهي في القرآن الكريم عن التطرف والغلو، وجاء الخطاب في النهي موجهاً لأهل الكتاب على وجه الخصوص**(قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل)**[٥].

المبحث الثاني: الإطار النظري للبحث

أولاً: التسامح في الفكر الاجتماعي الحديث

يُعد مفهوم التسامح من أكثر المفاهيم أهمية في علم الاجتماع لما له من صلة وثيقة بتماسك المجتمع وتحقيق قدراً كبيراً من التعايش بين الأفراد والجماعات داخل المجتمع. فقد ظهر التسامح كمفهوم فلسفي وأخلاقي في الفكر الاجتماعي الغربي في إسهامات مفكرين بارزين مثل جون لوك الذي دعا إلى ضرورة فصل الدين عن الدولة وحرية المعتقد، وعد التسامح شرط أساسي للأمن والاستقرار الاجتماعي. رغم إن الفكر الإسلامي سبق هذه التوجهات بقرون عديدة في نشر مبادئ التسامح، قال تعالى **(لا إكراه في الدين)**[٦] و**(وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا)**[٧]، وهي دعوات واضحة وصريحة للتعايش السلمي والتعددية وقبول الآخر.

ويرى علماء الاجتماع أن التسامح لا يظهر تلقائيًا، بل يرتبط بجملة من العوامل، أهمها[٨]:

١. الاستقرار السياسي: فغياب العنف والصراع يهيئ بيئة للتسامح.

٢. عدالة توزيع الموارد: حيث تُقلل الفوارق الطبقية من مشاعر الإقصاء أو الحقد الاجتماعي.

٣. التنشئة الاجتماعية: إذ تلعب الأسرة والمؤسسات التربوية والدينية دورًا كبيرًا في ترسيخ قيم التسامح أو عكسها.

٤. الخطاب الثقافي والإعلامي: فوسائل الإعلام والتعليم إما أن تكون أدوات لبناء التسامح أو لنشر الكراهية.

والفكر الاجتماعي الحديث، يتناول التسامح باعتباره منظومة ثقافية وسلوكية تتفاعل مع البُنى الاجتماعية والسياسية والدينية، فهو إذاً ليس مجرد قبول الآخر، بل مرآت تعكس حجم المرونة الثقافية والتعددية الفكرية في المجتمع. وقد وظف المفكرين السوسيولوجيون استخدام هذا المفهوم بالطرق التالية:

١- وظفه زيغمونت باومان في كتابه الحداثة السائلة، حيث توصل إلى إن المهاجرين إلى أوربا مكسب لا خطر، وإن عملية التوليد الثقافي (التهجين) التي سيحدثها تدفق الوافدين ومزج الأرواح والهمم الثقافية يعد مصدراً للثراء ومحركاً للإبداع في الحضارة الأوربية أو أية حضارة أخرى[٩].

٢- استخدمه بيير بورديو في إشارة ضمنية إلى أن التسامح لا يمكن أن يُفهم خارج رموز السلطة الثقافية التي تُنتج اللامساواة وتكرّس الإقصاء[١٠].

٣- كما أشار إليه تشارلز تايلور في كتابه سياسات الاعتراف، حيث ناقش التسامح ضمن إطار احترام الهويات الثقافية وحق الجماعات في التعبير عن خصوصياتها[١١].

أما المفكرون العرب والمسلمون فقد تعاملوا مع التسامح باعتباره جوهر المنظومة القيمية الإسلامية، ولكنهم أعادوا قراءته من جديد في ضوء الحداثة.

١- محمد عابد الجابري يرى إن أزمة التسامح العربي المعاصر ترتبط بأزمة العقل السياسي الذي يُقصي الآخر.

٢- طه عبد الرحمن والذي يميز بين التسامح الأخلاقي والتسامح الليبرالي، معتبرًا أن الأول أعمق لأنه ينبع من الرحمة لا من توازن المصالح.

٣- مالك بن نبي أشار إلى أن قابلية الاستعمار لا تتعلق بالسيطرة المادية فقط بل بانهيار القيم ومنها قيمة التسامح داخل المجتمعات المتخلفة.

ثانياً: التطرف في الفكر الاجتماعي الحديث

في مقابل التسامح الذي يعكس حالة التعايش السلمي والاعتراف بالآخر، يُعد التطرف مظهرًا اجتماعيًا مغايراً للتسامح وإشارة للعنف الرمزي والمادي، ويقوم على رفض الاختلاف ومحاولة فرض نمط أحادي من الفكر أو العقيدة أو الهوية. ويُنظر إلى التطرف بوصفه ظاهرة اجتماعية معقدة، وليست مجرد انحرافات فردية أو دينية، بل هو نتاج لحالات التهميش والتمييز العنصري وعدم المساواة وفشل في تحقيق العدالة.

ومن أهم المفكرين الذين ساهموا في تحليل التطرف:

١- إريك هوفر: في كتابه المؤمن الصادق، إذ يرى أن الحركات المتطرفة تجذب الأفراد المحبطين والمهمشين الباحثين عن الهوية والانتماء[١٢].

٢- بيير بورديو: والذي فسّر بعض أنماط التطرف كنتاج لعنف رمزي، يمارس عبر تهميش طبقات اجتماعية أو ثقافية[١٣].

٣- أولريش بيك: في نظريته (مجتمع المخاطر)، اعتبر أن التغيرات المتسارعة تخلق توترات تدفع الأفراد نحو التطرف كرد فعل للقلق الوجودي[١٤].

ويعرف التطرف بأنه انحراف في الفكر والسلوك وينشأ نتيجة للتناقضات في المصالح أو القيم بين أطراف مختلفة، حيث يكون كل طرف مدركاً لموقفه ويسعى للسيطرعلى موقف يتعارض مع رغبات الآخرين، مما قد يؤدي إلى استخدام العنف كوسيلة لتحقيق الأهداف[١٥] ويرتبط وجود التطرف بمجموعة من العوامل الاجتماعية المتداخلة منها:

١. الحرمان الاقتصادي والاجتماعي: ويكون التطرف هنا رد فعل عنيف لسوء توزيع الثروات والموارد .

٢. التهميش السياسي: غياب التمثيل العادل يخلق شعورًا بالإقصاء.

٣. الخطاب الديني المتطرف: حين تُوظف بعض الجهات المتطرفة المعتقدات الدينية لتبرير استخدام العنف.

٤. الإعلام التحريضي: وغالباً ما تروج له جهات سياسية وأحزاب تسعى لتحقيق مكاسب مادية وسياسية.

وقد حاول عدد من المفكرين والباحثين العراقيين تفكيك ظاهرة التطرف على النحو الآتي:

١- علي الوردي، في تحليله للشخصية العراقية، أشار إلى التناقضات النفسية التي تجعل الفرد متأرجحًا بين اللين والعنف.

٢- يرى الدركتور حاتم الكعبي إن التطرف يعد مظهراً من مظاهر الخلل في التوازن الاجتماعي والثقافي داخل المجتمع، إذ ينشأ نتيجة لضعف مؤسسات الضبط الاجتماعي وفقدان المعايير، وهو يعكس حالة إغتراب الفرد عن محيطه الاجتماعي.

٢- فالح عبد الجبار، في تحليله للحركات الإسلامية، أشار إلى أن الفقر والجهل والفراغ السياسي من الممكن أن تشكل بيئة حاضنة للمتطرفين.

٣- عبد الحسين شعبان، تناول التطرف من زاوية غياب المشروع المدني، وفقدان التوازن بين الهوية الدينية والمواطنة.

ثالثاً: العلاقة بين التسامح والتطرف

يمثل التسامح قبول الآخر والانفتاح عليه، في حين يتجسد التطرف في الرفض والإقصاء، ومن الناحية السوسيولوجية فإن العلاقة بينهما ليست مجرد تناقض، بل هي تعبير عن أزمات اجتماعية وإختلالات بنيوية في النظام الاجتماعي العام، ودلالة على فقدان الهوية وخلل في منضومة القيم وانهيار المعايير داخل المجتمع.

ويُنظر إلى كلا المفهومين في الفكر الاجتماعي ليست كصفات فردية فقط، بل كمخرجات لسياقات اجتماعية وثقافية معينة، فالتسامح والتطرف كمنظومات قيمية متعارضة تقوم على العديد من القيم المتعارضة والمختلفة، حيث يقوم التسامح على[١٦]:

أ- الاعتراف بالاختلاف.

ب - احترام التعددية.

ج - نبذ الإقصاء.

د - التعايش السلمي.

أما التطرف فيقوم على:

أ – رفض التعددية.

ب – احتكار الحقيقة.

ج – شيطنة الآخر.

د – الميل إلى العنف الرمزي أو المادي.

ويشير العديد من المفكرين، مثل زيغمونت باومان وأنتوني جيدنز، إلى أن العلاقة بين التسامح والتطرف ليست علاقة تناقض مفاهيم، بل هي علاقة جدلية، تنبع من التوترات في المجتمعات الحديثة، فكلما زاد الإقصاء والتهميش الاجتماعي والسياسي، زادت معه احتمالات التحول من الاعتدال إلى التطرف. وكلما غابت العدالة والمساواة، يصبح التسامح خطابًا هشًا وغير قادر على الصمود.وهنا يُمكن القول إن غياب التسامح يُمهّد لظهور كل أنواع التطرف المعروفة [١٧].

المبحث الثالث: التسامح في الفكر والسلوك عند رواد علم الاجتماع العراقي

أولاً: نبذة تاريخية عن الفكر الاجتماعي العراقي

يعود تاريخ الفكر الاجتماعي العراقي إلى فترات بعيدة إذ ظهرت أولى بوادر التفكير الاجتماعي، في الحضارات العراقية القديمة لاسيما الحضارة السومرية والبابلية، حيث تضمنت النصوص الأدبية والقانونية مثل (شريعة حمورابي) أول القوانين والتشريعات التي تسعى إلى التنظيم الاجتماعي والعدالة والمساواة، وفي العصور الإسلامية كان للعراق دوراً محورياً وكبيراً في تطور الفكر الاجتماعي، من خلال أعلام بارزين مثل الكندي والجاحظ الذين ناقشوا قضايا اجتماعية من منظور فلسفي وأدبي.

أما في العصر الحديث، فقد بدأ تبلور الفكر الاجتماعي العراقي بشكل واضح مع نشوء الدولة العراقية الحديثة في النصف الأول من القرن العشرين. وبرزت خلال هذه المرحلة شخصيات مهمة أغنت الفكر السوسيولوجي العراقي مثل (الدكتور علي الوردي) والذي يعد من أشهر رواد السوسيولوجيا في العراق، إذ أهتم بدراسة المجتمع العراقي من منظور نقدي، وقدم ملاحظاته عن المجتمع العراقي متمثلة في إزدواج الشخصية، وصراع الحضارة والبداوة، والتناشز الاجتماعي. والدكتور حاتم الكعبي الذي أسهم

في التنظير الاجتماعي والتحليل الثقافي، وله مساهمات في فهم بنية المجتمع العراقي وتفسير ظواهره. والدكتور فالح عبد الجبار الذي ركز على الحركات الاجتماعية والديناميات السياسية وتأثيرها في البنية الاجتماعية، وغيرهم الكثير من المفكرين الذين رفدوا الساحة السوسيولوجية العراقية بأفكار وإسهامات كثيرة.

إن الفكر الاجتماعي الذي أسهم فيه رواد الفكر الاجتماعي العراقي لم يأتي من فراغ بل من خلال الدور الكبير الذي لعبه أساتذة الجامعات العراقيين في رفد الساحة العراقية بأفكار وإسهامات كبيرة، ولأن دور الأستاذ الجامعي الرئيس (التدريس) يقوم بتغذية دوره الفرعي كباحث أو مؤلف أو مترجم في الوقت ذاته يرجع الدور الفرعي ما استطاع الحصول عليه من معلومات وافكار ونظريات في قراءاته وتراجمه وتآليفه إلى الدور الرئيس لكي يستطيع أن ينمي ويطور مادة محاضراته امام الطلبة ، وهذا ما يسمى بالتغذية الراجعة[١٨].

وكان الدكتور عبد الفتاح إبراهيم أول من أسس للدراسات السوسيولوجية في العراق من خلال نشر كتبه (مقدمة في علم الاجتماع) و (دراسات في علم الاجتماع) وبهذا يكون قد أرسى الأساس لنشأة علم الاجتماع ليس في العراق فحسب وإنما في الوطن العربي عموماً، وبسبب أفكاره التحرّرية التي حوتها مقالاته وكتبه، عارض الحكومات الفاشية التي تلت انقلاب ١٩٦٣ والذي كان إيذانا بتواري كلّ فكر تقدمي، فابتعد عبد الفتاح إبراهيم عن الواجهة الفكرية، ومُنعت كتبه وغاب عطاؤه الفكري الاجتماعي والسياسي كانعكاس لوضع عام من التضييق والملاحقة والتكميم طال العراقيين، وبخاصة فئة المثقفين والمناضلين والمفكرين الثوريين. ولم يعد مسموحاً دراسة فكره ولا إعادة طباعة كتبه أو نشر أيّ أثر من آثاره، إلى أن سقط نظام الحكم الدكتاتوري في العام ٢٠٠٣، فقام الأستاذ شهاب أحمد الحميد بجمع ما تناثر في الصحف والمجلات من مقالات عبد الفتاح إبراهيم ودراساته، وأصدرها في كتاب خاص كما أعاد طبع بعض كتبه، منها (حقيقة الفاشية وقصة النفط والجذور الفكرية للحركة الشعبية والمهاتما غاندي والحرب والتطور الاجتماعي ١٩٤١ ومعنى الثورة وأضواء على ثورة ١٤ تموز[١٩]. وإذا كانت جهود عبد الفتاح إبراهيم قد انصبت على علم الاجتماع الكلي، فإنّ جهود الدكتور علي الوردي – الذي تلا عبد الفتاح إبراهيم بالظهور في مشهد الدراسات المجتمعية بعدة عقود– قد انصبت على دراسة علم الاجتماع المصغر. فتوسع إبراهيم في دراسة العلاقات الدولية متحرياً آثارها على الطبقات الاجتماعية، واقتصر الوردي على دراسة ظواهر تخصّ المجتمع العراقي وحده، وتمسّ تقاليده وسلوكياته، من قبيل الازدواج في الطباع الأخلاقية، والتردي الاجتماعي بالتناشز والشذوذ، إلى جانب مسائل دينية ولغوية وحضارية وإيديولوجية وتربوية وأدبية. فأصاب في بعضها ولم يصب في بعضها الآخر. الأمر الذي أوقعه في

خلاف مع المتخصّصين في علوم أخرى، فتخاصم مع أدباء ومفكرين ورجال دين وليبراليين. وكانت له مناظرات وجدالات مع عبد الرزاق محي الدين وعلي الشوك وعبد الجليل الطاهر ومرتضى العسكري وغيرهم[٢٠] .

ومن ثم نما وأزدهر التفكير الاجتماعي العراقي وتطورت الدراسات السوسيولوجية بعد تأسيس الدراسات العليا في قسم علم الاجتماع – كلية الآداب جامعة بغداد، منذ (٥٤) سنة تقريباً، على يد الرعيل الأول من أساتذة علم الاجتماع في العراق (الذين حصلوا على اجازاتهم الدراسية في الجامعات العالمية) يرأسهم مؤسس القسم (الدكتورعلي الوردي) مع نخبة من الأساتذة مثل (د.حاتم الكعبي، د.شاكر مصطفى سليم ، د.عبد الجليل الطاهر، د.متعب مناف، د.قيس النوري، ود. يونس حمادي علي وغيرهم) حيث إستقبلت أول وجبة من طلبة الدراسات العليا على مستوى الماجستير في عام ١٩٧٢، وتم انتاج أولى رسائل الماجستير في عام ١٩٧٤، من قبل الباحثين (دهام محمد علي – تغير القيم الاجتماعية وأثره على التنظيم الاجتماعي لقرية البو طعمة – بإشراف د.متعب مناف جاسم) ، (ضياء عبد الجليل – العائلة بحي جميلة – بإشراف د. فوزية العطية) و (كريم محمد حمزة – البغاء السري في بغداد بإشراف د. يونس حمادي علي) و(صصبيح الجلبي– الصراع وأثره على فاعلية القيم الدينية في مدينة الكاظمية – بإشراف د.متعب مناف جاسم) وتوالت بعدها رسائل الماجستير ليصل حجم الانتاج إلى (٣٩٠) رسالة حتى عام ٢٠١٩ ، في حين بدأت الدراسات العليا على مستوى الدكتوراه في عام ١٩٨٧ وأنتجت أول اطروحة دكتوراه في عام ١٩٩٠ (موح عراك عليوي – الاتجاه الاجتماعي عند الجاحظ – بإشراف د, متعب مناف جاسم) وانتجت حتى الآن (٢١٨) إطروحة دكتوراه[٢١].

ثانياً: مواقف رواد علم الاجتماع من التسامح

١ – التسامح في فكر الدكتور علي الوردي

أجمع رواد علم الاجتماع في العراق على إن التسامح ليس خياراً، بل هو ضرورة حتمية للعيش وبناء مجتمع سليم متماسك، من خلال تحليلهم المركز للبنى العميقة للمجتمع العراقي، وكانت دعواتهم واضحة وصريحة إلى تجاوز كل نعرات التعصب والإنغلاق والتقوقع، مؤكدين على إن التسامح والتعايش السلمي يتطلب إصلاحاً عميقاً وجذرياً في طرق التنشئة، ووسائل التربية والتعليم، والنظم الاجتماعية، والعادات والتقاليد السائدة. فالدكتور علي الوردي الذي يعد من أشهر رواد علم الاجتماع في العراق، قدم لنا حلولاً منهجية ومعالجات مهمة للتناقضات الثقافية والقيمية التي تشكل الشخصية العراقية، وبرز التسامح في فكره كقيمة أساسية لتحقيق التعايش السلمي في مجتمع متعدد الهويات كالمجتمع العراقي.

حيث يرى الدكتور الوردي بأن التسامح ضرورة اجتماعية وليس مجرد قيمة أخلاقية. بل هو عامل ضروري ومهم لضمان إستقرار المجتمع وتقدمه وإزدهاره، وفي كتابه (شخصية الفرد العراقي) أشار إلى أن الفرد العراقي يعاني من إزدواجية في الشخصية نتيجة لصراع قيم الحضارة والبداوة، وهذا التناقض بطبعه يدفع بالفرد إلى سلوكيات متناقضة، حيث يدفع الفرد نحو سلوك متسامح في مواقف معينة وتعصباً شديداً في مواقف أخرى، وهو يرى بأن هذا النوع من السلوك (الإزدواج) لايعد بطبيعة الحال نفاقاً بل هو نتيجة لصراع ثقافي تاريخي داخل المجتمع[٢٢].

إن غرس قيم التسامح والتعصب حسب الدكتور الوردي يعود إلى طرق وأساليب التنشئة الاجتماعية، حيث أشار إلى أن الأسرة والمدرسة والمؤسسات الدينية، تلعب دوراً مهما وحاسماً في تشكيل سلوك الفرد تجاه الآخر المختلف، ففي كتابه (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي)، ناقش الوردي موضوع التربية والتنشئة، وكيف إن التربية المتزمتة تخلق شخصية مزدوجة، مما يعيق من قدرة الفرد على قبول التنوع والأختلاف في الآخرين. فالتماسك العائلي في المدن العراقية له جانبان (سلبي وإيجابي) فالجانب السلبي يتمثل في العصبية الشديدة تجاه العصبيات الأخرى، أما الجانب الإيجابي فيتمثل في التضامن والتعاون عند العجز والمرض والمصيبة. وليس من السهل فصل هذين الجانبين أحدهما عن الآخر[٢٣].

ودعا الدكتور الوردي إلى إصلاح الأذهان والعقول قبل إصلاح المجتمع مؤكداً على إن تعزيز التسامح يتطلب ترسيخ مفاهيم الديمقراطية وحرية الرأي، لأن التجارب القاسية التي مر بها الشعب العراقي علمته دروساً بليغة، فإذا لم يتعض بها فسوف يصاب بتجارب أقسى منها، وعلى العراقيين أن يتعودوا على ممارسة الديمقراطية حتى تتيح لهم حرية الرأي والتفاهم والحوار دون أن تفرض فئة أو طائفة رأيها بالقوة على الآخرين. وقال إن الشعب العراقي منقسم على نفسه وفيه من الصراع القبلي والقومي والطائفي أكثر من أي بلد آخر، وليس هناك من سبيل سوى تطبيق الديمقراطية[٢٤].

وفي مواضع كثيرة من كتبه ومؤلفاته حذر الدكتور الوردي من الصراعات الطائفية بعدها السرطان الذي يهدد وحدة المجتمع ويشيع فيه ثقافة العنف والإرهاب، وإن النزاع الطائفي لا أهمية له في العالم المتمدن، لكنه في المجتمع الذي نعيش فيه له كل الأهمية، فالمتمدنون الآن منهمكون في أقمارهم الصناعية وقذائفهم الموجهة، وهم على وشك أن يصعدوا بها إلى المريخ، بينما نحن لانزال نتحدث في موضوع المفاضلة بين علي وأبي بكر وأيهما أولى بالخلافة من صاحبه[٢٥].

٢- التسامح في فكر الدكتور حاتم الكعبي

رغم إسهاماته الكبيرة في الفكر الاجتماعي العراقي إلا إن أعماله لم تحظ بالإهتمام الكافي في الأوساط الأكاديمية العراقية، حيث يعد الدكتور الكعبي من رواد علم الاجتماع البارزين على مستوى العراق والوطن العربي، وقد تناول في كتاباته قضايا المجتمع العراقي والعربي من زوايا تحليلية عميقة، ومن بين أبرز ما يميز أفكاره هو اهتمامه بثقافة التسامح ولو بشكل غير مباشر، وعدها ضرورة لبناء مجتمع مستقر وعقلاني، وكانت مضامين التسامح حاضرة دوماً في كتاباته عن الثورات وصراع الطبقات، وعن الدين والهوية.

ويرى الدكتور الكعبي إن المجتمعات التي تعاني من الإنقسام الطائفي أو القومي لايمكن أن تحقق نهضة حقيقية دون وجود قدر من التسامح المتبادل بين مكوناتها، وفي دراسته للحركة القومية يشرح كيف إن غياب التسامح يولد القمع والدكتاتورية والذي بدوره يخلق حالة (إنفجار ثوري أو عنيف) لذا يمكن فهم التسامح في فكره بوصفه آلية وقائية ضد التعصب، فالتسامح عنده شرط أساسي للإستقرار الاجتماعي[٢٦].

وفي طروحاته حول الدين يرى الدكتور الكعبي أن الأديان ليست جامدة، بل هي استجابات اجتماعية لحاجات البشر، فنراه كثيراً مايربط بين التفسير الاجتماعي للدين وبين ضرورة تحليل الممارسات الدينية، هذا التحليل الذي يسمح باستنباط عقلاني لمضاهر التسامح في هذه الممارسات، لأنه يصف الدين بأنه نتاجاً تاريخياً واجتماعياً، يتشكل بحسب ظروف المجتمع ويتغير بتغير الأزمات والبيئات، وإن هذه الممارسات (الطقوس والشعائر) هي في جوهرها ممارسات اجتماعية تعبر عن هوية الجماعة أو تضامنها الاجتماعي. لذا فإن من الصعب تفسير الممارسات والطقوس الدينية دون فهم البيئة الاجتماعية والسياسية المحيطة بها. ومن ثم فأن التسامح وفقاً لهذا المنظور ينبغي أن يفهم وفق اختلاف هذه البيئات الاجتماعية والسياسية، وأن يدرك الأفراد بأن هذا الاختلاف في المعتقدات لايبرر لهم العداء أو إقصاء الآخرين[٢٧].

وفي السياق ذاته يعتقد الدكتور حاتم الكعبي بأن الثورات الحقيقية قد تمر بمراحل من التوتر والإنقسام، لكن نجاحها يبقى مرهوناً في قدرتها على إنتاج نوع من التوازن مبني على الإعتراف بالآخر، وهذا الإعتراف هو نفسه الذي نعني به (التسامح)، والتسامح هنا ليس شعاراً بل شرط لإستعادة الشرعية

الاجتماعية والسياسية لكل ثورة، بالتالي فإن نجاح هذه الثورات يعتمد على وجود توازن اجتماعي داخل المجتمع والذي يقوم أيضاً على الإعتراف بالآخر المختلف، وهو ما يتطلب وجود ثقافة تسامحية وتقبل الأختلاف، وإن غياب هذه الثقافة قد يؤدي إلى الفوضى والعنف، وبالتالي يكون سبباً مهماً ورئيسياً في فشل تلك الثورات(٢٨).

وفي كتابه (علم اجتماع الثورة) حذر الدكتور الكعبي من المثقف الذي يزرع بذور الكراهية والحقد بين الطوائف والجماعات، وكان يؤمن إيماناً مطلقاً بأن المثقف الحقيقي هو من يعمل على حماية الوعي العام من التعصب والإنغلاق ويساهم في خلق مناخ تسامحي، وأن يكون وسيطاً بين الطبقات والطوائف الاجتماعية المختلفة، ونقطة تلاقي للأفكار المختلفة، وليس مصدراً للإنقسام والتعصب، وهو يرى بأن التسامح يعد واجباً مفروضاً على المثقف باعتباره يمثل طبقة النخبة في المجتمع ويكون دوره في تقديم رؤية شاملة تقوم على إحترام تعدد الآراء والاخلافات(٢٩).

وفي كتابه (حركات المودة) يرى بأن المودة بعدّها ظاهرة اجتماعية تعبر عن التفاعلات الاجتماعية بين الافراد والجماعات، الأمر الذي يتطلب وجود بيئة مناسبة لقبول هذه التفاعلات، قائمة على التسامح والتقبل، فإن تبني الأفراد لمظاهر مودة معينة يعكس رغبتهم في الإنتماء والتقارب من بيئاتها، بالتالي تحتاج إلى قبول اجتماعي من المجتمع، فهي ليست مجرد تقليد أعمى بل هي تعبير عن التفاعل الاجتماعي الذي يتطلب فهماً وتسامحاً مع التنوع الثقافي والاجتماعي. فللمودة وظيفة اجتماعية لاتخلو من فائدة إذ هي تدخل الناس في نمط عام مشترك من خلال ماتفرضه عليهم من احساس بعدم الاكتراث، إلى حد ما، بعض الحدود أو التعاريف الحضارية، وهو أمر يدعو الناس إلى الاحساس بالتشابه على اختلافهم في مصالحهم ومشاربهم ودروب حياتهم ومستوياتهم الحياتية، ويمكنهم من الالتقاء في نقاط من هذا القبيل تدور حولها المودة على أن لاتكون هذه التغييرات عميقة في الحياة البشرية بحيث توغل إلى الصميم متجاوزة سطحية المجتمع وحياته(٣٠).

المبحث الرابع: التطرف في الفكر والسلوك عند رواد علم الاجتماع العراقي

أولاً: موقف الدكتور علي الوردي من التطرف

يعد الدكتور علي الوردي من أشهر المفكرين العراقيين الذين تميزت طروحاتهم بالجرأة والعمق في التحليل، وخصوصاً فيما يتعلق بالمشكلات الاجتماعية في المجتمع العراقي خاصة والعربي عامة،

ودراسة الظواهر المترسخة في المجتمع سيما ظاهرة العنف والتطرف التي يرى إنها ظاهرة مترسخة في الثقافة والسلوك، وهي ليست مجرد موقف سياسي أو ديني عابر، فالتطرف لايمكن حصره بالدين أو السياسة فقط، بل هو نمط من التفكير والسلوك قائم على الإنغلاق ورفض الآخر، والإيمان المطلق بفكرة واحدة دون مراجعة أو نقد، وهو يعتبر إن التطرف ينشأ من البيئة الاجتماعية والثقافية، والإنسان المتطرف هو غالباً مايكون نتاج الظروف التربوية والقيم المتشددة.

فالتطرف كما يرى الدكتور الوردي ليس مجرد إنحراف سلوكي بل هو نتاج (إطار فكري) يتشكل في اللاشعور نتيجة التنشئة الاجتماعية والثقافية الخاطئة، يؤثر على طريقة تفكير الفرد ويقوده إلى رؤية الأمور بشكل محدود، ولايمكن التخلص من هذا الإطار الفكري بسهولة لأنه كامن في اللاشعور مما يجعله عرضة للتطرف في المواقف والأفكار. فالإطار الفكري الذي ينظر من خلاله الإنسان إلى الكون مؤلف جزؤه الأكبر من المصطلحات والمألوفات والمفترضات التي يوحي بها المجتمع إليه ويغرزها في أعماق عقله الباطن. والإنسان إذن متأثر بها من حيث لايشعر، فهو حين ينظر إلى ماحوله لايدرك أن نظرته مقيدة ومحدودة، وكل يقينه أنه حر في تفكيره، وهنا يكمن الخطر، فهو لايكاد يرى أحداً يخالفه في رأيه حتى يثور غاضباً ويتحفز للإعتداء عليه. وهو عندما يعتدي على المخالف له بالرأي لايعد ذلك شيناً ولا ظلماً إذ هو يعتقد بأنه يجاهد في سبيل الحقيقة ويكافح ضد الباطل[٣١].

إن أزدواج شخصية الفرد العراقي الذي شخصه الدكتور الوردي في أحد أهم فرضياته عن المجتمع العراقي، يرى إن سببه يعود نتيجة صراع طويل بين الحضارة والبداوة، وإن الشعب يعاني صراعاً اجتماعياً ونفسياً على توالي الأجيال. فهو من ناحية لا يستطيع أن يطمئن إلى قيمه الحضرية زمناً طويلاً، لأن الصحراء تمده بين كل آونة وأخرى بالموجات التي تقلق عليه طمأنينته الاجتماعية. وهو من الناحية الأخرى لا يستطيع أن يكون بدوياً كأبن الصحراء، لأن الحضارة المنبعثة من وفرة مياهه وخصوبة أرضه تضطره إلى تغيير القيم الوافدة إليه لكي يجعلها ملائمة لظروفه الخاصة[٣٢].

فالتعصب والتطرف كما يرى الدكتور الوردي قد يكون نتاج للتربية والتنشئة الاجتماعية غير السليمة، فكثيراً ماتقوم التربية على طاعة عمياء وقدسية مطلقة للأفكار التقليدية التي يضفي عليها المجتمع هذه القدسية، وكان من نتائجها أن تولد التسلط والإستبداد للسلطة الدينية أو السياسية، فالطفل العراقي كثيراً مايرزخ تحت عبء هذه العقبات المفروضة عليه ويحاول أن يتمرد عليها عن طريق الإنحراف والمراوغة.

فهو إذن يتظاهر باحترام المثل العليا التي لقنه إياها مدرسوه وأولياء أمره، ولكنه يراوغ عنها فعلاً ويختلق لنفسه شتى المعاذير والتبريرات في سبيل التنكب عنها، إنه يخادع نفسه قبل أن يخدع الآخرين[٣٣].

ومن مظاهر التطرف التي أشار إليها الدكتور علي الوردي في طروحاته، هي التدين المتشدد حيث يتحول الدين إلى وسيلة للسيطرة والتكفير بدلاً من كونه دعوة للتسامح والعدل[٣٤]، وكذلك التطرف القومي الذي يعلي من شأن القومية على حساب القوميات الأخرى مما يؤدي إلى التناحر والإنقسام[٣٥]. وكذلك التطرف الفكري، حيث يحتكر البعض الحقيقة ويرفضون الرأي المخالف[٣٦]، ومن ثم فإن كل هذه المظاهر إنما هي متجذرة في العقل الجمعي وتحتاج إلى جهد فكري وتربوي لتفكيكها، وتحتاج أيضاً إلى التسامح وقبول الآخر سواء في الدين أو الفكر أو القومية، وأن نتقبل النقد والنقد الذاتي، فالعقل لا ينضج إلا عبر مراجعة الأفكار بدلاً من الإيمان الأعمى بها.

ثانياً: موقف الدكتور حاتم الكعبي من التطرف

يعد الدكتور حاتم الكعبي من المفكرين الاجتماعيين البارزين في العراق في النصف الثاني من القرن العشرين، وقد عرف بتحليلاته الجريئة وطرحه العميق للقضايا الاجتماعية، كالصراع الطبقي والتغير الثقافي، وكان من أشد المنتقدين للبنى التقليدية في المجتمع العراقي، وبشكل خاص القيم العشائرية والدينية والتي يعتبرها من أهم وأبرز معوقات التقدم، وأعتبر التراث في صيغته الدينية والعشائرية هو عائق أمام التقدم وليس وسيلة للتفاعل الخلاق. وكان متأثراً في ذلك بمدرسة دوركهايم، في تحليله للعلاقة بين الدين والمجتمع حيث يرى إن كل مشروع نهضوي حقيقي يجب أن يتقاطع تماماً مع التصورات الدينية التقليدية.

كان الكعبي يدعو إلى تغيير شامل في النظام الاجتماعي، وليس اصلاحاً تدريجياً وقد عبر مراراً عن قناعته بأن التغيير يجب أن يكون جذرياً يطال البنى الأساسية لا القشور، مايعكس نزعة راديكالية في التغيير الاجتماعي، وهذه الرؤية رغم جاذبيتها النظرية قد تكون غير واقعية في مجتمعات معقدة مثل المجتمع العراقي حيث التغيير الراديكالي قد يؤدي إلى تفكك اجتماعي أو عنف غير متحكم به. (فالتراث الاجتماعي في كل مجتمع ينطوي على رواسب ومخلفات ومتحجرات ومقدسات وشعائر وطقوس ومراسيم وطوائف دينية وعقائد ومشاعر وما اليها ،هي من خلق الجماهير في الأعم الأغلب)[٣٧].

وشكلت مواقف الكعبي من ظاهرة التطرف جانباً مهماً من رؤيته النقدية للمجتمع في ظل التحولات السياسية والدينية التي شهدها العراق خلال القرن العشرين، فقد ترك لنا إرثاً فكرياً غنياً في مجالات التغير الاجتماعي والعلاقات الأسرية والحركات الثورية، فهو ينظر إلى التطرف ليس كظاهرة قائمة بذاتها بل كمحصلة لإختلالات أعمق في البنية الاجتماعية والسياسية، ففي كتابه (في علم اجتماع الثورة) يشير إلى إن الحركات الراديكالية سواء الدينية أو السياسية ليست وليدة عقائد منحرفة فحسب، بل نتاج حتمي لواقع اجتماعي مأزوم(٣٨).

ومن أبرز مواقف الكعبي الجريئة تلك التي تتناول التطرف الديني، حيث كان يرى أن بعض الأشكال المتطرفة من التدين تؤدي إلى تعطيل العقل، وفرض سلوكيات لاتخدم تطور المجتمع، ويظهر هذا الموقف جلياً في تحليله للعلاقة بين الدين والسياسة في العالم العربي، حيث ينتقد النزعة إلى (إسلمة الدولة)، أو فرض الشريعة الدينية بشكل متشدد، لكنه في الوقت ذاته لا يلغي دور الدين، بل يدعو إلى تحريره من التوظيف السياسي والأيديولوجي، ليبقى مرجعية أخلاقية وروحية لا أداة قمع وتعبئة سياسية(٣٩).

ولم يكن الكعي في كتاباته من دعاة التغير البطيء، بل كان يدعو دائماً إلى تغيير جذري في البنى الاجتماعية لكن دون أن ينزلق في تمجيد العنف، فهو يرى إن العنف الثوري قد يكون مبرراً حين تغيب العدالة تماماً، ويحذر من أن يتحول إلى أداة لتبرير الاستبداد أو خلق دوامة من العنف، وفي تحليله لحركات التحرر الوطني مثل (ثورة١٤ تموز ١٩٥٨) في العراق، فقد أبدى تعاطفاً مع دوافعها لكنه انتقد تحولها لاحقاً إلى نظام شمولي، وفي هذا السياق قال (الثورة تبدأ بالناس، ويجب أن تبقى معهم، وإلا تحولت إلى إستبداد بثوب جديد)(٤٠).

ويكشف موقف الدكتور حاتم الكعبي من التطرف عن رؤية عميقة ومركبة تنأى عن الأحكام الأنفعالية أو التبسيطية، فهو لايدين التطرف كمجرد انحراف سلوكي، بل يراه نتاجاً لتشوهات أعمق في النظام الاجتماعي، لذلك فإن أطروحته حول التطرف تظل راهنة وجديرة بالقراءة في زمن يتصاعد فيه التطرف الديني والسياسي حول العالم.

ثالثاً: الاستنتاجات

ومن أهم الاستنتاجات التي توصل إليها البحث تمثلت بالآتي:

١- إن التطرف ليست ظاهرة دينية أو سياسية بحتة، بل هو نتاج لبيئة اجتماعية مأزومة، تفتقر إلى التوازن القيمي والمؤسسات المدنية.

٢- إن ضعف التسامح في المجتمع العراقي يعود إلى تراكمات تاريخية وصراعات (طائفية وقبلية وسياسية) ما جعل بناء مجتمع مدني متسامح يعد تحدياً صعباً.

٣- التسامح في الخطاب الاجتماعي بقي على مستوى التنظير ولم يتحول إلى برامج تربوية أو سياسية مؤثرة.

٤- غياب دور مؤسسات المجتمع المدني المستقلة أدى إلى تعطيل ترسيخ قيم التسامح، مقابل بروز دور الطائفة والعشيرة والأحزاب السياسية.

٥- يميل كل من الدكتور علي الوردي وحاتم الكعبي إلى تحليل واقع المجتمع العراقي من زاوية صراع الحضارة والبداوة أو بين القيم التقليدية والحديثة.

٦- يرى الدكتور علي الوردي إن إزدواجية القيم في الشخصية العراقية هي أحد أسباب ظهور التطرف في المجتمع العراقي وهي نتيجة الصراع بين قيم المدينة وقيم البادية.

٧- دعا الدكتور علي الوردي إلى نقد التراث الديني والاجتماعي التقليدي كشرط ضروري لخلق بيئة تسامحية.

٨- يرى الدكتور حاتم الكعبي إن التسامح لايمكن أن يظهر في بيئة يسودها الإستبداد السياسي أو التفاوت الطبقي الكبير.

٩- ميز الدكتور حاتم الكعبي بين التطرف كفكر والتطرف كممارسة، ودعا إلى معالجتهما بالطرق العلمية المنهجية.

١٠- كان الدكتور علي الوردي أكثر جرأة في النقد من الدكتور حاتم الكعبي لكنه كثيراً ما ينزع إلى التعميمات.

١١- الدكتور حاتم الكعبي كان أكثر دقة منهجية، لكنه أقل حضوراً في الساحة بسبب أسلوبه الأكاديمي الصارم.

١٢- يتفق الدكتور علي الوردي مع الدكتور حاتم الكعبي على إن التسامح لايمكن أن ينبثق من فراغ، بل يحتاج إلى بنية مجتمعية مدنية مستقرة.

رابعاً: التوصيات

في ضوء ما توصل إليه البحث من نتائج تتعلق بحليل أفكار الدكتور علي الوردي والدكتور حاتم الكعبي حول التسامح والتطرف في المجتمع العراقي، يوصي الباحث بجملة من التوصيات، يمكن تلخيصها بالآتي:

١. دعوة الباحثين العراقيين إلى إجراء مزيد من البحوث والدراسات المقارنة التي تتعلق بدراسة الظواهر الاجتماعية المختلفة في المجتمع العراقي.

٢. ضرورة تشجيع الجامعات العراقية والمؤسسات الأكاديمية كافة على إدماج مواضيع التسامح والإعتدال ونقد الأفكار المتطرفة في المناهج الدراسية في أقسام علم الاجتماع.

٣. تدريب الباحثين وطلبة الدراسات العليا على تحليل الخطابات العلمية بطريقة موضوعية وعلمية ومنهجية، والنقد البناء للتراث الفكري وإعادة قراءته من جديد.

٤. إعادة قراءة وتحقيق أعمال الدكتور حاتم الكعبي، وتسليط الضوء على مشروعه الفكري الذي لم ينل الاهتمام الكافي، بالرغم من غزارة انتاجه وصرامة منهجه العلمي.

٥. إطلاق حملات وطنية بالتعاون مع منظمات المجتمع المدني لتعزيز ثقافة التسامح والحوار المجتمعي، مستندة في مضمونها إلى أفكار الدكتور علي الوردي والدكتور حاتم الكعبي.

الهوامـش:

١. الإمام الحافظ الأصفهاني المعروف بأبن المقرئ، المعجم، تحقيق محمد حسن اسماعيل ومسعد عبد الحميد ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣، ص١٢٢.

٢. الدكتور شوقي أبو خليل، التسامح في الإسلام المبدأ والتطبيق، دار الفكر المعاصر، بيروت ، لبنان، ص٤٥.

٣. سورة هود، آية ١١٨ .

٤. سعيد عدنان تيتان، التطرف وعلاقته بمفهوم الذات لدى طلبة مؤسسات التعليم العالي في محافظة قليقيلية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القدس المفتوحة (فلسطين)، كلية الدراسات العليا، ٢٠١٧، ص٣٢.

٥. سورة المائدة، آية ٧٧.

٦. سورة البقرة، آية ٢٥٦ .

٧. سورة الحجرات ، آية ١٣ .

٨. جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة منى أبو سنة، مراجعة مراد وهبه، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧، ص٧٦ .

٩. زيجمونت باومان، الحداثة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، ط١، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠١٦، ص٣٤.

١٠. بيير بورديو، العنف الرمزي، بحث في أصول علم الاجتماع التربوي، ترجمة نظير جاهل، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤، ص٢٢.

١١. شلال حميد سليمان، إيناس محمد عزيز، مقال مسار الاعتراف بالآخر في الفكر الاجتماعي، مجلة جيل الدراسات، (أ) و(ف) ع ٧٥ (٢٠٢٢) ، ص ١١٧ – ١١٨ .

١٢. إيريك هوفر ، المؤمن الصادق، أفكار حول طبيعة الحركات الجماهيرية، ترجمة الدكتور غازي بن عبد الرحمن القصبي، ط١، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) ، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٠، ص٥٣.

١٣. بيير بورديو، العنف الرمزي (بحث في أصول علم الاجتماع التربوي)، ترجمة نظير جاهل، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤، ص٥٨.

١٤. أولريش بيك، مجتمع المخاطرة، ترجمة الدكتور جورج كتورة والدكتورة إلهام الشعراني، ط١، المكتبة الشرقية، بيروت ، لبنان، ٢٠٠٩، ص٧٠.

١٥. أمل إسماعيل عايز، التطرف الفكري، أسبابه والعوامل المؤدية له، وآثاره ، بحث منشور في مجلة الباحث، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة كربلاء، المجلد ٤٤ ، العدد الثاني، الجزء الثاني، نيسان، ٢٠٢٥، ص٤.

١٦. د.عادل القليعي، مفهوم التطرف وأشكاله وأثره على الفرد والمجتمع، مقال منشور على موقع نوس سوسيال، Noos social ، على الرابط https://noossocial.com/?p=2530 .

١٧. محمد سعيد حسين برواري، المعوقات الاجتماعية والسياسية للتسامح في المجتمع الكردي ، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب ، جامعة صلاح الدين، اربيل، العراق، ٢٠١١ ، ص٧٩ .

١٨. معن خليل عمر، رواد علم الاجتماع في العراق، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠، ص٩ .

١٩. نادية هناوي، عبد الفتاح إبراهيم ودوره التأسيسي في علم الاجتماع العراقي، مجلة نقد وتنوير للدراسات الإنسانية، مقاربات نقدية في التربية والمجتمع، العدد العاشر، السنة الثالثة، كانون الأول ديسمبر، ٢٠٢١، ص٢٢٤.

٢٠. المصدر نفسه ، ص٢٣١.

٢١. خالد حنتوش ساجت، النتاج البحثي في القسم الأم لعلم الاجتماع في العراق دراسة تحليلية – احصائية لما انتج في الدراسات العليا، مجلة الآداب العدد١٢٨ ، آذار ٢٠١٩، ص ٤٠٢ .

٢٢. د.علي الوردي، شخصية الفرد العراقي بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث، ط٢، منشورات دار ليلى، لندن، ٢٠٠١، ص٤٧.

٢٣. د.علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الأكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث، بلا مكان نشر، بلا تاريخ، ص ٢٧٩.

٢٤. إبراهيم الحيدري، علي الوردي رائد الفكر الاجتماعي التنويري في العراق، مقال منشور في مجلة إيلاف الالكترونية، بتاريخ ١٥، أغسطس ٢٠٠٥، على الموقع الالكتروني : https://elaph.com/Web/ElaphWriter/2005/8 .

٢٥. د.علي الوردي، اسطورة الأدب الرفيع، ط٢، دار كوفان للنشر والتوزيع، لندن، ١٩٩٤، ص ٢٨٦.

٢٦. د.حاتم الكعبي، في علم اجتماع الثورة، مطبعة الزهراء، بغداد،١٩٥٩،ص٣٥.

٢٧. المصدر السابق نفسه، ص٩٠ .

٢٨. محمد لفته محل، سوسيولوجيا الدين عند الدكتور حاتم الكعبي، مقال منشور على موقع الحوار المتمدن، في ٢٠١٩/٢/١٩، على الرابط : https://m.ahewar.org/s.asp?aid=928579&=0

٢٩. د.حاتم الكعبي، في علم اجتماع الثورة، مصدر سابق، ص ١٢٤.

٣٠. د.حاتم الكعبي، حركات المودة، ط١، مطبعة الديوانية الحديثة، الديوانية، ١٩٧١، ص١٤٦.

٣١. د.علي الوردي، خوارق اللاشعور أو أسرار الشخصية الناجحة، ط٢، دار الوراق، لندن، ١٩٩٦، ص٤٧.

٣٢. د.علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، مصدر سابق، ص١٢.

٣٣. د.علي الوردي، شخصية الفرد العراقي، بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث، مصدر سابق ، ص ٦٦.

٣٤. سلمان رشيد محمد الهلالي، التدين العراقي في منظور علي الوردي، الحوار المتمدن، على الموقع الالكتروني: https//:www.ahewar.org/debat/show.art.asp?

٣٥. د.علي الوردي، وعاظ السلاطين،ط٢، دار كوفان، لندن، ١٩٩٥، ص٢٣٠ .

٣٦. المصدر نفسه، ص١٨ .

٣٧. د.إبراهيم خليل العلاف، الدكتور حاتم الكعبي والمدرسة العراقية في علم الاجتماع، مقال منشور في صحيفة دنيا الوطن الاكترونية، بتاريخ: ٢٠١١/٨/٢٥ على الموقع : https://pulpit.alwatanvoice.com/content/print/235948.htmi .

٣٨. د.حاتم الكعبي، في علم اجتماع الثورة، مصدر سابق ،ص٨٦.

٣٩. أنس ناجي حسين البلداوي، منهجية البحث عند الدكتور حاتم الكعبي دراسة اجتماعية تحليلية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم علم الاجتماع، ٢٠١١، ص ٦٧ .

٤٠. د.حاتم الكعبي، في علم اجتماع الثورة، مصدر سابق ،ص٧٨.

المصـــادر

***- القرآن الكريم**

١. إبراهيم الحيدري، علي الوردي رائد الفكر الاجتماعي التنويري في العراق، مقال منشور في مجلة إيلاف الالكترونية، بتاريخ ١٥، أغسطس ٢٠٠٥، على الموقع الالكتروني:. https://elaph.com/Web/ElaphWriter/2005/8

٢. الإمام الحافظ الأصفهاني المعروف بأبن المقرئ، المعجم، تحقيق محمد حسن اسماعيل ومسعد عبد الحميد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣.

٣. أمل إسماعيل عايز، التطرف الفكري، أسبابه والعوامل المؤدية له، وآثاره، بحث منشور في مجلة الباحث، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة كربلاء، المجلد ٤٤، العدد الثاني، الجزء الثاني، نيسان، ٢٠٢٥.

٤. أنس ناجي حسين البلداوي، منهجية البحث عند الدكتور حاتم الكعبي دراسة اجتماعية تحليلية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم علم الاجتماع، ٢٠١١.

٥. أولريش بيك، مجتمع المخاطرة، ترجمة الدكتور جورج كتورة والدكتورة إلهام الشعراني، ط١، المكتبة الشرقية، بيروت ، لبنان، ٢٠٠٩.

٦. إيريك هوفر، المؤمن الصادق، أفكار حول طبيعة الحركات الجماهيرية، ترجمة الدكتور غازي بن عبد الرحمن القصبي، ط١، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) ، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٠.

٧. بيير بورديو، العنف الرمزي (بحث في أصول علم الاجتماع التربوي)، ترجمة نظير جاهل، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤.

٨. بيير بورديو، العنف الرمزي، بحث في أصول علم الاجتماع التربوي، ترجمة نظير جاهل، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤.

٩. جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة منى أبو سنة، مراجعة مراد وهبه، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٧.

١٠. خالد حنتوش ساجت، النتاج البحثي في القسم الأم لعلم الاجتماع في العراق دراسة تحليلية – احصائية لما انتج في الدراسات العليا، مجلة الآداب العدد١٢٨ ، آذار ٢٠١٩.

١١. د.إبراهيم خليل العلاف، الدكتور حاتم الكعبي والمدرسة العراقية في علم الاجتماع، مقال منشور في صحيفة دنيا الوطن الاكترونية، بتاريخ: ٢٠١١/٨/٢٥ على الموقع : https://pulpit.alwatanvoice.com/content/print/235948.htmi .

١٢. د.حاتم الكعبي، حركات المودة، ط١، مطبعة الديوانية الحديثة، الديوانية، ١٩٧١.

١٣. د.حاتم الكعبي، في علم اجتماع الثورة، مطبعة الزهراء، بغداد،١٩٥٩.

١٤. د.شوقي أبو خليل، التسامح في الإسلام المبدأ والتطبيق، دار الفكر المعاصر، بيروت ، لبنان.

١٥. د.عادل القليعي، مفهوم التطرف وأشكاله وأثره على الفرد والمجتمع، مقال منشور على موقع نوس سوسيال، Noos social، على الرابط https://noossocial.com/?p=2530 .

١٦. د.علي الوردي، اسطورة الأدب الرفيع، ط٢، دار كوفان للنشر والتوزيع، لندن، ١٩٩٤.

١٧. د.علي الوردي، خوارق اللاشعور أو أسرار الشخصية الناجحة، ط٢، دار الوراق، لندن، ١٩٩٦.

١٨. د.علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربي الأكبر في ضوء علم الاجتماع الحديث، بلا مكان نشر، بلا تاريخ.

١٩. د.علي الوردي، شخصية الفرد العراقي بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث، ط٢، منشورات دار ليلى، لندن، ٢٠٠١.

٢٠. زيجمونت باومان، الحداثة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، ط١، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ٢٠١٦.

٢١. سعيد عدنان تيتان، التطرف وعلاقته بمفهوم الذات لدى طلبة مؤسسات التعليم العالي في محافظة قليقيلية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القدس المفتوحة (فلسطين)، كلية الدراسات العليا، ٢٠١٧.

٢٢. سلمان رشيد محمد الهلالي، التدين العراقي في منظور علي الوردي، الحوار المتمدن، على الموقع الالكتروني: https//:www.ahewar.org/debat/show.art.asp?

٢٣. شلال حميد سليمان، إيناس محمد عزيز، مقال مسار الاعتراف بالآخر في الفكر الاجتماعي، مجلة جيل الدراسات، (أ) و(ف) ع ٧٥ (٢٠٢٢) .

٢٤. محمد سعيد حسين برواري، المعوقات الاجتماعية والسياسية للتسامح في المجتمع الكردي ، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة صلاح الدين، اربيل، العراق، ٢٠١١ .

٢٥. محمد لفته محل، سوسيولوجيا الدين عند الدكتور حاتم الكعبي، مقال منشور على موقع الحوار المتمدن، في ٢٠١٩/٢/١٩، على الرابط : https://m.ahewar.org/s.asp?aid=928579&=0

٢٦. معن خليل عمر، رواد علم الاجتماع في العراق، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠.

٢٧. نادية هناوي، عبد الفتاح إبراهيم ودوره التأسيسي في علم الاجتماع العراقي، مجلة نقد وتنوير للدراسات الإنسانية، مقاربات نقدية في التربية والمجتمع، العدد العاشر، السنة الثالثة، كانون الأول ديسمبر، ٢٠٢١.